رواية

أنطونيو تابوكي... هدية من «وراء القبر»

رامي طويل

رواية عن البرتغال بعد انتهاء حقبة الديكتاتورية

«إننا ننشر اليوم هذا الكتاب بفخر ومحبة، ونحن ندرك كلّ الإدراك أننا نحرس ونُدير تراثاً متروكاً للجميع» بهذه العبارة تختتم الملاحظة التي كتبها الناشر الإيطالي كارلو فلترينيلي، وزوجة تابوكي، ماريا خوسيه دي لانكستر حول رواية «إيزابيل» (2013) للروائي الإيطالي أنطونيو تابوكي (1943 ـ 2012) وقد نشرت بعد وفاته، قبل أن تنقل أخيراً إلى العربية (دار الساقي ـ بيروت 2016 ـ ترجمة نبيل رضا المهايني). تذكر الملاحظة أنّ صاحب «بيريرا يدعي» كتب عمله هذا خلال سنوات عديدة، وتحدث عنه بثقة خلال العديد من المقابلات، وسمّاه نصاً خيالياً «رواية غريبة، ومخلوقاً غريباً كمستحاثة غريبة الشكل بقيت متعثرة داخل صخرة».

منذ صياغته للإهداء، على الصفحة الأولى من الكتاب، يضع تابوكي قارئه أمام فرضية الغرابة التي وصف بها روايته، جاعلاً من «الماندالا» المدخل لقراءة الحكاية. وبذلك يعود صاحب «هذيان» للتأكيد على انشغاله بفكرة الأرواح المتعددة، والميتافيزيقيا. يبني روايته وفق دوائر الماندالا، التي تعمل كلّ دائرة منها على نقل الحكاية إلى دائرة أخرى، على هيئة سلسلة متتابعة تسعى للوصول إلى المركز (يمثّل في الثقافة الهندية مركز الكون الميتافيزيقي) حيث الحقيقة. لا تختلف «إيزابيل» عن أعمال تابوكي السابقة من حيث قدرتها على المزج، حدّ التماهي، بين الواقعي والمتخيل. صاحب «تريستانو يحتضر» رأى على الدوام أن الحياة لا تقتصر فقط على ما نعيشه، بل تتعدى ذلك لتكون في مكان ما كثافة حيوات كثيرة، ما يجعل الزمان والمكان مفهومين قابلين للتبدل بعيداً عن منطق الحياة المجردة. من هنا نجد تاديوس، راوي «إيزابيل»، ينتقل من دائرة إلى أخرى، في رحلة بحثه عن حقيقة موت إيزابيل، صديقته القديمة، مجتازاً أمكنة وأزمنة لا يربطها إلى الواقع غير يقينه بأن اجتيازه للدوائر سيوصله للحقيقة.

من حيث الشكل، يبني تابوكي روايته استناداً لنظرية الماندالا، مقسماً إياها إلى تسع دوائر تضيق تدريجياً باتجاه المركز، بما يتشابه إلى حدّ ما مع بناء الرواية البوليسية. تتكشّف ملابسات الوقائع تدريجياً، ما يتيح حيزاً كبيراً للتشويق، من دون السهو عن العمق الذي سعى تابوكي في مختلف أعماله لسبر أغواره.

قارئ فيرناندو بيسووا، ومترجمه إلى الإيطالية، الذي قرر تعلّم اللغة البرتغالية حين أسره سحر بيسووا، ليغدو مدرساً للغة والأدب البرتغاليين، يختار البرتغال مسرحاً لأحداث روايته. يصلها تاديوس بحثاً عن حقيقة موت إيزابيل، بعدما قرأ خبر وفاتها في الصحف. من دون الحاجة إلى أي تمهيد، يضع تابوكي قارئه في خضم الحدث، فحين يكون الحلم جسد الواقع تنتفي الحاجة إلى الزمان المنطقي، وهو ما يتيح لتاديوس المضي في رحلة بحثه بحريّة من يتحرك في الحلم. هي البرتغال بعد انتهاء حقبة الديكتاتورية، التي فرضها سالازار على مدى 40 عاماً، غير أنّ إيزابيل، المناضلة الشيوعية زمن الديكتاتورية قضت، بحسب الخبر الصحافي، منتحرة في سجنها، وهو ما يحتاج تاديوس الى التأكد منه، ومعرفة ملابساته، رغم أنه لن يعرّف بنفسه بأكثر من صديق قديم لإيزابيل، الأمر الذي يتواطأ تابوكي معه ويكتفي به طيلة السرد. بين مونيكا، صديقة إيزابيل، في لشبونة، التي تفتتح دوائر البحث باستعادة ذكريات قديمة، تتداعى إلى حدّ التشكيك بحادثة الموت، وصولاً إلى محطة الرفييرا، حيث يجلس تاديوس إلى جوار ماتيو، عازف الكمان، ليسمع منه أنّ «الماضي البعيد، الماضي القريب، الحاضر، المستقبل، أستميحك العذر لكني لا أعرف الأزمان، لا أعرف الزمن، كلّ الأشياء متساوية بالنسبة لي»، يروي تابوكي تفاصيل حقبة مهمّة من تاريخ البرتغال، من دون أن يكتب رواية تاريخية، ومكتفياً بالسياسة خلفية لحدث سيتحوّل رويداً رويداً إلى نظّارة توضح للقارئ كيف يكون الإنسان انعكاساً لكلّ مفردات الحياة، وكيف يمكن للموت ألا يكون نهاية. بخفّة شعريّة النثر الممزوج بالفلسفة، يمكن لإيزابيل أن تكون ماغدا، الطالبة التي اعتقلت من الجامعة، وانتحرت في السجن عبر ابتلاعها كميات من الزجاج المكسور، كما يمكن أن تكون فتاة أخرى استمدت بقايا حياتها من الموت. غير أنّ كلّ تلك الفلسفة والأجواء الميتافيزيقية لن تكون غير المعنى الحقيقي للحياة، الذي ستضيق دوائر تابوكي التسع حتى الوصول إليه حين سيسمع تاديوس لمرة أخيرة صوت إيزابيل وهي تقول له: «وداعاً يا تاديوس، هذه المرة الأخيرة، لن نجتمع ثانية بكل تأكيد. وداعاً».

«إيزابيل» التي وصفتها صحيفة «لوموند» بأنها «هدية رائعة وغير متوقعة» تعتبر واحدة من روائع تابوكي، التي تغلق الدائرة على إبداعات واحد من أبرز روائيي العصر، اعتبر السرد وسيلتنا لفهم من نكون وما نريد، طالما الحياة برمّتها عصيّة على الفهم.

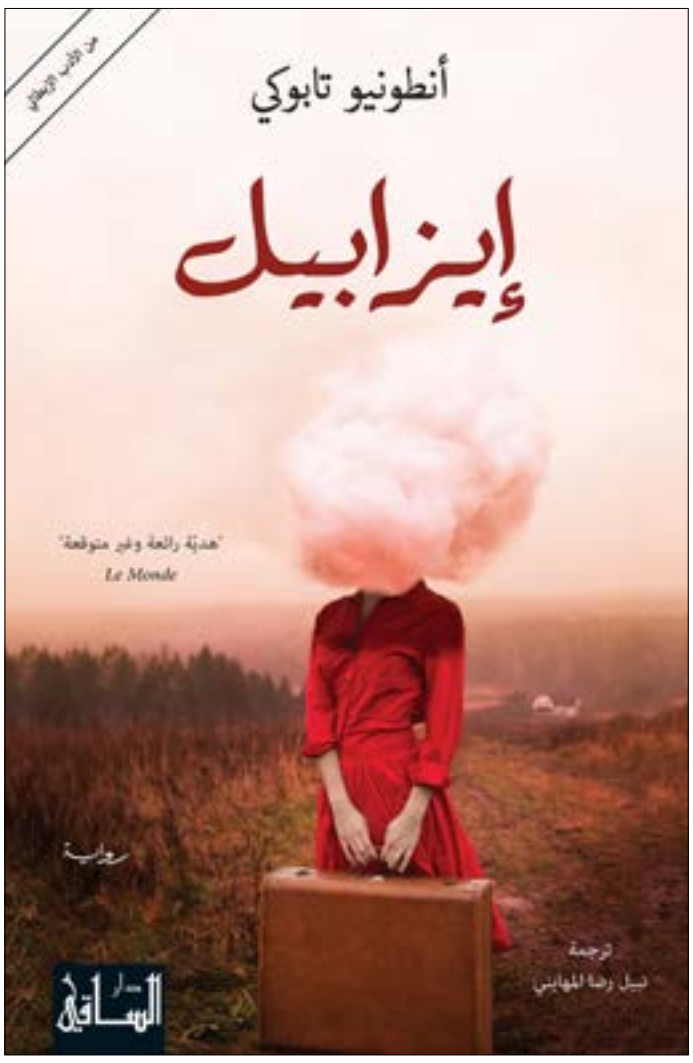

مجلة

اليمن تحتل «بدايات»

استحضار المطران غريغوار حدّاد وحسين آيت أحمد

ما زالت مجلّة «بدايات» تقاوم مصرّة على البقاء وسط صعوبات كثيرة أجبرت مجلات ثقافية عديدة على التوقف عن الصدور. بيروت، عاصمة الثقافة العربية دائماً، صارت بلا مجلة ثقافية فصلية أو شهرية على نحو تقريبي. «بدايات» واحدة من الإصدارات التي نجحت حتى الآن في البقاء على قيد الحياة وهي تدخل اليوم عامها الخامس. ومثل الأعداد السابقة، نلقى في إصدار «بدايات» الجديد الشغل نفسه حول الملفّات المُكرّسة لفكرة «الثورات» العربيّة منذ العدد الأول. فـ «الثورات بشبابها» بحسب التبويب الدائم الموجود في كل «بدايات». من هنا يمكن الدخول في فكرة العدد الجديد من هذه المجلة التي يرأس تحريرها الكاتب اللبناني فوّاز طرابلسي. إنها فكرة «الثورة» بداية وعبر حوار مع جلبير الأشقر الباحث والأكاديمي اللبناني وصاحب كتاب «الشعب يريد ـ بحث جذري في الانتفاضة العربية». في الحوار معه، يحلّل الأشقر «المسارات المتفاوتة والمتلاقية للثورات العربية في عامها الخامس». سيكون هذا الحوار على هيئة مُقدمة للعدد المقبل من «بدايات» الذي سيأتي في جزء كبير منه ـ بحسب افتتاحية المجلة ـ لـ «مواصلة النقاش وتقييم تلك المسارات والردّات المختلفة التي تعرضت وتتعرّض (الثورات) لها»، ولاحقاً مقاربة فكرة «الثورة» نفسها متجاورة مع فكرة «اليمن» التي تحتل مخيّلة فوّاز طرابلسي، كأنه اليمني الأخير، أو كأنه لا يريد أن ينسى «مواطنته» اليمنية، هو الذي كتب كثيراً عن اليمن وأقام فيه.

هكذا نجد في العدد ثلاثة مقالات عن اليمن: تكتب وزيرة الثقافة اليمنية أروى عثمان (رفضت الذهاب إلى السعودية مع الحكومة اليمنية المقيمة هناك)، عن أرامل الحرب. تقول أروى: «مع كل فاتحة وصبح وانسدال قمر، يخفت دلع الأمهات والزوجات، ما بعد الحرب. لن نسمع: يا نظر عيوني، ويا كش من عيني، ويجعل يومي قبل يومك، وقوّي عظامك، فديتك، صح بدنك». هنا، تبدو كتابة الوزيرة نابعة من قلبها، هي التي تقيم في قلب مشروع الموروث الشعبي اليمني.

في سياق مقالها الطويل، نرى تلك المفردات التي لن يفهمها قارئ غريب. كأن طرابلسي هنا، يثق في مقدرة القارئ على فهم اللهجة اليمنية، كأنها لغة العرب. أتت لغة عثمان محمولة على نبرة سردية جاءت خليطاً بين نبرة شخصية يسارية ملتزمة، ونبرة أُم تدرك تماماً معنى أن تفقد الأم أبناءها.

في المقابل، كتب الباحث في الجامعة الأميركية في بيروت اليمني فارع المسلمي دراسة قارن فيها بين اتفاق الطائف اللبناني والمبادرة الخليجية اليمنية «بما هما إطاران لحل النزاعات الأهلية وحدثان فاصلان في حياة الشعبين اليمني واللبناني»، إلى جانب مقال ثالث لصاحب هذه السطور عن «الغناء في السياق الاجتماعي الصنعاني» عبر قراءة في كتاب الباحث الفرنسي جان لامبير «طب النفوس- في الغناء الصنعاني». عمل يقدم فيه لامبير تعريفاً هاماً لذلك الغناء وطقوسه المصاحبة التي منحته تلك الخصوصية التي يتسم بها.

وفي زاوية «حضور الغياب»، تذهب «بدايات» لاستحضار حياة وأعمال راحلين هما المطران غريغوار حدّاد (1924 ـ 2015) الذي حذر في مقال له في مطلع الحرب الأهلية اللبنانية «من دور تنامي الفوارق الاجتماعية في تفجير النزاعات الأهليّة المسلّحة»، في حين يحضر الغياب الثاني في شخصية حسين آيت أحمد (1926 ـ 2015)، أحد القادة التاريخيين للثورة الجزائرية الذي عاش حياته حالماً باعتماد اللغة الأمازيغية لغة رسميّة في الجزائر «لكن شاءت مفارقة قاسية أن يبادر الرئيس الجزائري عبد العزيز بو تفليقة إلى إقرار هذا المطلب الأساسي بالنسبة إلى قسم كبير من مواطني الجزائر تكريماً للراحل بعد وفاته».

ولعلّه من اللازم هنا الإشارة إلى سمة ظلّت «بدايات» مستمرة عليها وتظهر على الشكل الإخراجي. تبدو مساحات واسعة من صفحاتها وقد اهتمّت بالتشكيل على نحو ثابت وأعمال الجداريات والغرافيكس التي ارتبطت على نحو وطيد بثورات «الربيع العربي»، وكانت حاضرة منذ شرارتها الأولى. وقد خُصص هذا العدد في جانب التشكيل والجداريات في آن للفنّان المكسيكي دييغو ريفيرا (1886 ـ 1957) الذي اشتهر اسمه بتلك الجداريات الملحمية وبأشغاله التي حاولت المزاوجة بين إعادة الاعتبار للثقافة الأهلية المكسيكية العائدة إلى حضارات ما قبل الاستعمار الإسباني، وبين تمجيد الحداثة الغربية وعلى وجه الخصوص ذلك الجزء الحامل لإمكانيات العدالة والتقدم. والمعروف عن ريفيرا كما زوجته الفنانة فريدا كاهلو حضورهما كيساريين مناضلين وملتزمين بقضايا الشعب والانسان. إطار كتبت فيه الباحثة والناقدة والمترجمة المكسيكية إيرمغالد أملهاينز التي نالت درجة الدكتوراه من «جامعة تورنتو» عن رسالتها «جان لوك غودار والقضية الفلسطينية».

جمال...